المقاربة السوسيولوجية للأخلاق في المجتمعات الحديثة: تحليل "دوركهايم" نموذجا
The Sociological Approach to Ethics in Modern Societies: The Durkheim Model Analysis

د. براهيمي أم السعود [1]
[1] جامعة زيان عاشور الجلفة (الجزائر)
messocio@gmail.com

تاريخ الاستلام : 03-02-2020؛ تاريخ المراجعة : 11-10-2020؛ تاريخ القبول : 31-12-2020

ملخص :

تهدف هذه الورقة الى تسليط الضوء على المقاربة السوسيولوجية للأخلاق، كما يقترحها "دوركهايم" مؤسس علم الاجتماع الذي تميز بتحليل وضيفي يربط العلاقة بين الأخلاق وبنية المجتمع ،مما يجعله يقر أن كل نمط اجتماعي له الأخلاق التي يحتاجها مثلما كل نمط بيولوجي له النظام العصبي الذي يسمح له بالحفاظ على نفسه.

وعليه فإن هذه الورقة تسمح لنا بفهم وتفسير نظرة "دوركهايم" التطورية التي تجعل من تغير نمط المجتمع وانتقاله من البناء التقليدي البسيط الى البناء الحديث المعقد، سبب ارتياب القيم الأخلاقية واختلالها في المجتمعات الصناعية الحديثة

الكلمات المفتاحية: النظرية الأخلاقية، المجتمعات الحديثة، تقسيم العمل، التربية الأخلاقية.

Abstract

The purpose of this article is to shed light on the sociological approach to ethics proposed by Durkheim, founder of sociology and distinguished by a functionalist analysis linking morality and social structure. It is this belief that makes him say that each social type has the ethics it needs, just as each biological type has its neurological system that allows it to maintain itself. This article allows us to understand the evolutionist conception of Durkheim, which makes the transition from a simple archaic structure to a complex modern structure, the main cause of the uncertainty of moral values and their dysfunction in modern industrial societies..

Key words: moral theory, modern societies, work division, moral education.

1 مقدمة

عرف المجتمع الأوروبي تحولات سريعة في نهاية القرن العشرين ، أسفرت عن انتقاله من نمط التنظيم التقليدي العشائري البسيط الى نمط صناعي معقد نتيجة عدد من العوامل منها الثورة الصناعية، انتصار النظام الاقتصادي الرأسمالي، تبني الديمقراطية وخاصة بروز وسيادة المذهب الفرداني وما ترتب عنه من حريات في المعتقد والتفكير والفعل .هذا الوضع الجديد المتميز بالتباين والاختلاف، شغل تفكير العلامة " دوركهايم " ودفعه في بداية مشواره العلمي الى محاولة تحليل الواقع الاجتماعي في أوروبا، حيث بدأت تظهر عليه بوادر التفكك وعدم الاستقرار، الأمر الذي كان ينسبه الى انتشار رقعة الفردانيين وما رافقه من اختلال في توازن المجتمع، وزعزعة داخل القيم الأخلاقية. هذه الظروف المعقدة أدت بمنظر الشعور الجمعي، الى تحمل مسؤولية هامة ومستعجلة تتمثل في تطوير نظرية أخلاقية جديدة تأخذ بعين الاعتبار التمايز الاجتماعي وتقسيم العمل داخل المجتمعات الصناعية الحديثة ، فما هي وفق "دوركهايم"، الوسائل والسبل التي يمكن من خلالها فرض الأخلاق في جميع ميادين الحياة الاجتماعية المتباينة؟.

نحاول فيما يلي الإجابة على هذا السؤال بالاعتماد على مؤلفات "دوركهايم" بصفة خاصة وعلى ما كتبه ثلة من علماء الاجتماع حول نظرياته بصفة عامة.

المحور الأول: أهمية وأهداف البحث، الإشكالية

1- **أهمية البحث :** تكمن أهمية البحث في كونه يتطرق الى مفهوم الأخلاق ، الذي يشكل منبع القيم والمعايير والتشريعات بالنسبة لكل المجتمعات الإنسانية منذ بداية تاريخها. فالاهتمام بالأخلاق هو من الاهتمام باستقرار المجتمع وتوازنه خاصة في ظل التحولات السوسيوثقافية الراهنة التي فرضتها العولمة. فالمجتمعات الحديثة أصبحت بهذا السبب عرضة للانسلاخ عن مبادئها والابتعاد عن مثلها العليا بفعل ارتياب المعايير الأصلية، مما يؤدي الى ضرورة البحث عن السبل الكفيلة بتعزيز مكانة الأخلاق وسلطتها خاصة وأن مجتمعاتنا العربية أصبحت هي الأخرى عرضة لكل أنواع الممارسات المنحرفة.

2-**أهداف البحث**

أ- توضيح العلاقة بين الأخلاق وبنية المجتمع كما صاغها "دوركهايم،

ب- معرفة مدى سلطة الأخلاق داخل المجتمعات الحديثة،

ج- معرفة كيف يمكن الجمع بين الحتمية الاخلاقية واستقلالية التفكير والفعل،

د- دور التربية والمدرسة في تعزيز سلطة الأخلاق والاستقرار الاجتماعي .

3- الاشكالية : ان التحولات السوسيو اقتصادية والثقافية التي شهدتها المجتمعات الأوربية الحديثة بعد الثورة الصناعية، وانتقالها من نمط البنية الاجتماعية التقليدية ذات تقسيم العمل البسيط على أساس التضامن الآلي الى البنية الحديثة ذات تقسيم العمل المعقد على أساس التضامن العضوي، ترتب عنه تيارات فكرية تنشط في سياق المذهب الفرداني. وقد أدى هذا الواقع الى ارتياب المعايير لدى بعض الجماعات الاجتماعية، نجمت عنه أزمة أخلاقية فتحت المجال واسعا الى الاعتباطية والعشوائية وصلت الى حد زعزعة استقرار المجتمعات والاخلال بتوازنها.

- ✓ فكيف كان تفسير "دوركهايم للأزمة الأخلاقية التي اجتاحت المجتمعات الحديثة؟
- ✓ ما هي العناصر التحليلية التي تقوم على أساسها النظرية الأخلاقية التي طورها "دوركهايم"؟
- ✓ الى أي مدى يمكن للتربية أن تلعب دورا في تحقيق استقرار المجتمع في تصور "دوركهايم؟
- ✓ ما هي المسؤولية المنوطة بالمدرسة أمام بوادر أزمة الأخلاق؟

المحور الثاني: الأخلاق بمنظور " دوركهايم «

1- **الأخلاق والطبيعة البشرية :** انطلق "دوركهايم" من اعتقاده بأن التنظيمات الاجتماعية يتم بناؤها في أي لحظة تبعا لقرارات فردية ، ليقر بأن الكائن البشري يمكن اعتباره المهندس الوحيد لتنظيمه الاجتماعي وذلك بقوله: " بما أن التنظيمات الاجتماعية هي نتيجة اتفاقية بشرية فنتيجة هذه الاتفاقية، ليس إلا صنعا بشريا: " قرار إرادي يصنعها وآخر يغيرها " فإذا كانت المجتمعات مؤسسات بهذا الشكل كما يضيف، فان الفلسفة الأخلاقية، ينبغي أن تقوم على الكيان الحقيقي الوحيد وهو الطبيعة البشرية. ذلك هو السبب العميق حسب رأيه، والمفسر للعملية الاستنتاجية المعمول بها في كل مقاربات الفلسفة الأخلاقية حيث يتم صياغة المبدأ الأخلاقي الأسمى انطلاقا من تحليل الطبيعة البشرية ثم يتم من خلاله استنتاج المذهب الأخلاقي كاملا (Durkheim,1924 :34).[1]

غير أن استنتاجا معياريا مثل هذا كما يقول "دوركهايم"، لا يمكنه أن يؤدي إلا الى نسق مفاهيمي مجرد ومفترض بصفة بديهية، يستجيب لمنطق داخلي، لكنه بدون علاقة تذكر بتعقيد وتنوع الحياة الأخلاقية. ولذا فهو يرى أن هذه الأخيرة (الحياة الأخلاقية) لا يمكن استيعابها إلا من خلال الاستقراء (من الجزء الى العام ومن النتيجة الى السبب) حيث يقول: "لا يمكن أن نبني الاخلاق، قطعا منفصلة، ثم نفرضها بعد ذلك على الأشياء، بل ينبغي ملاحظة الأشياء ثم استقراء الأخلاق من خلالها".

2- الأخلاق والبنية الاجتماعية : جاءت فرضية "دوركهايم " كالتالي:" إن الأخلاق لدى أي شعب لها علاقة مباشرة مع بنية المجتمع الذي يمارسها وكل نمط اجتماعي له الأخلاق التي يحتاجها مثل ما كل نمط بيولوجي له النظام العصبي الذي يسمح له بالحفاظ على نفسه، وبالتالي فإن "الأخلاق ينجزها المجتمع وتعكس بدورها بنيته". هذه الفرضية وحدها كما يقر " دوركهايم " تسمح بدراسة التحولات التاريخية للتصورات الأخلاقية في ارتباطها بالتطور الاجتماعي والتحقق من التناسب بين نمط المجتمع والمستوى الأخلاقي. فحيث ما وجد هذا التناسب وجد معه التوازن والاستقرار، وعليه فان انعدام هذا التناسب كما يقر، يهدد المجتمع بأزمة أخلاقية نتيجة تأخر الضمير الأخلاقي بالنسبة لمستوى التطور الاجتماعي(Durkheim,1924 :39) [2].

ان المقاربة الدوركهايمية لسوسيولوجيا الأخلاق، تركز على وحدة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية وتقوم منهجيتها على عملية الاستقراء الامبريقي لتفسير الظواهر الاخلاقية في نشأتها والطريقة التي تعمل بها وتقييم السير العادي للتطور أو انحرافه وبالتالي فإن القصد من " دوركهايم " ليس استخراج الأخلاق من العلم بل الوصول الى تطوير علم الأخلاق. فالظواهر الأخلاقية في نظره، هي ظواهر مثلها مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى، وهي قواعد تضبط الفعل ويمكن التعرف عليها حسب بعض الخصائص المميزة لها وبالتالي فإنه يصبح من الممكن ملاحظتها ووصفها وتصنيفها والبحث عن القوانين التي تحكمها، لكن كيف نتأكد أننا أمام قواعد أخلاقية وما هي مميزاتها؟

يرى" دوركهايم " أنه انطلاقا من التمييز المنهجي لدراسة الأخلاق بصفة علمية وكذلك الحكم عليها خلال الممارسة، يمكننا تقديم التعريف التالي:" تشكل الأخلاق نسقا من القواعد الضابطة للسلوك حيث أنها تقوم بتحديد كيفية الفعل في حالات معينة وعليه فإن القيام بالفعل كما تم تحديده، يعني الخضوع لهذه القواعد " ومن الخصائص التي تتميز بها هذه القواعد يركز "دوركهايم"على أبرزها وهي (Durkheim,1903 :59)3.

أ- الطابع الاكراهي : من مميزات القواعد الأخلاقية أنها تتمتع بطابع إجباري أو إكراهي ذلك أنها كما يشير " دوركهايم " تحدد المسموح به والممنوع تحت طائلة العقاب الاجتماعي أما في حالة اختراقها، يتعرض الفرد الى عقوبة ردعية، ليست نتيجة محتوى الفعل بل نتيجة كون الفعل ليس مطابقا للقواعد المتفق عليها مسبقا لأن القواعد الأخلاقية تكتسي سلطة خاصة، تكون بموجبها مطاعة لأنها تنهي وتأمر.

ب- الطابع النفعي: الاكراه ليس إلا واحدا من مميزات الأخلاق حيث أنه ينبغي أن تضاف له المنفعة لأن السعي وراء غاية لا نبالي بها ولا نرغب فيها ولا تهز مشاعرنا، وفق" دوركهايم "، شيء مستحيل نفسيا، فهو لا يستوعب كيف أن شخصا ما يسلك وفق قواعد معينة لمجرد أن هذه الأخير تأمره. إن ما يراه "دوركهايم" مفقودا هنا هو الدافع والمصلحة الخاصة وكذلك المتعة التي لن تكون إلا إذا كان الفرد يشعر أن الهدف المنشود من قبل القواعد يعود عليه بالمنفعة. ففي هذه النقطة، يرجع " دوركهايم " الى فكرة الأخلاق النفعية التي ترى أن احترام القواعد يكون أكثر ضمانا عندما يرغب المعنيون في هذه القواعد، بينما ترتبط الرغبة نفسها بالمنفعة التي تحققها آلية القواعد وعلى سبيل المثال، يذكر " دوركهايم " أنه إذا حقق متعامل تجاري أرباحا بفضل قواعد السوق، سوف يكون بدون شك، من أقوى المؤيدين لاقتصاد السوق.

ج-الطابع الخيري: ان الواجب والخير (le devoir et le bien) يمثلان كذلك، خاصيتين مركزيتين تقوم على أساسهما الأخلاق في نظر " دوركهايم "، تتكاملان وتتداخلان وتندمجان داخل تصرفات الأفراد الظاهرة، إلا أنه في حين يقر المثاليون والنفعيون بتعارض هذين المبدأين الأخلاقيين العظيمين، يرى " دوركهايم " من جانبه، أن هذين العنصرين ليسا أساسيين داخل الأخلاق فحسب، بل يحتلان نفس المرتبة. فالواجب والخير يشكلان وحدة قد لا تخلو من التوتر، لكنهما غير متناقضين وليسا إلا وجهين لكل قاعدة أخلاقية.

و لتوضيح العلاقة الحميمية بين العنصرين المميزين للأخلاق والمتناقضين ظاهريا فقط، يشير" دوركهايم " الى المفهوم المقدس الذي يكتسي نفس الطبيعة الازدواجية (dualiste)، فهو من جهة، يخلق لدى المؤمن شعورا إن لم يكن الخوف، يكون الاحترام ومن جهة أخرى، يثير لديه الرغبة، ينجذب ويبحث على الاتصال به.

3- الأخلاق وتقسيم العمل

حاول " دوركهايم "من خلال مؤلفه " تقسيم العمل الاجتماعي" (De la division du travail social) دراسة الظروف الاجتماعية التي أدت الى حتمية بروز أخلاق فردانية، فيقول في هذا السياق:" إن القواعد الأخلاقية تغيرت بصفة جذرية بفعل تقسيم العمل الاجتماعي وتباينه المتنامي باستمرار، حيث أنها من أخلاق جماعية ذات طابع ديني، انتقلت الى أخلاق فردانية ذات طابع علماني بسبب تحول الشعور الجمعي والتضامن الاجتماعي وهنا يميز "دوركهايم" بين شكلين من المجتمعات: مجتمعات تقليدية ومجتمعات حديثة(Durkheim,1893 :68) [4]

3-1- الأخلاق والمجتمعات التقليدية : تتكون المجتمعات التقليدية (les sociétés archaïques) كما يعرفها " دوركهايم " من تجمعات اجتماعية صغيرة تعيش في ظل تقاليد مقدسة من المعايير والممارسات الدينية وتتميز بتطور تقني واقتصادي بطيء ونفس الشيء بالنسبة للاتصالات والنقل اضافة الى تقسيم عمل عائلي بسيط. فهذه المجتمعات العشائرية كما يضيف، تعيش بالنمط القطعي (type segmentaire) وتكون الحياة داخل مثل هذه المجتمعات ذات الحجم الصغير، في تصور " دوركهايم "، خاضعة كليا للشعور الجمعي الخاص بالجماعة أي مجموعة المعتقدات والمشاعر المشتركة بين متوسط أعضاء المجتمع الواحد. ويكون الشعور الجمعي بمثابة الذاكرة الجماعية التي تضمن نقل العادات والتقاليد وكل خبرات الجماعة من جيل الى جيل. كما أن الشعور الجمعي، لا يقوم بتأسيس الهوية الجماعية فحسب، بل يعمل كذلك على ترسيخ جميع القواعد الأخلاقية التي تضمن خبرة الحياة ووحدتها لدى كل أعضاء العشيرة مع الحفاظ على بقاء واستمرار شروط الحياة عبر الأجيال. هذه العادات القوية جدا كما يؤكد " دوركهايم "، تكون لها بالضرورة، طبيعة دينية خاصة أما الدين في الأصل، فإنه يمتد الى كل جوانب الحياة بحيث أن كل ما هو اجتماعي هو بالضرورة ديني، مما يجعل من الاجتماعي والديني كلمتين مرادفتين (Durkheim,1893 :75).5

ان الانتظام الذي يميز الحياة الاجتماعية والروتين حسب رأي " دوركهايم "، كافيين لتكوين الفرد وفق الملامح المميزة للجماعة. فالتربية كحقل مستقل واجباري داخل نظام عشائري من هذا النوع، غير ضرورية ذلك أن دور المعلم يقوم به القدماء والأجيال السابقة، لأن اندماج الفرد داخل الجماعة يكون بمثابة التضامن الآلي (la solidarité mécanique) الذي ينشأ عن التشابه ويربط الفرد بمجتمعه.

3-2- الأخلاق والمجتمعات الحديثة : من المنطق حسب " دوركهايم " أنه لا يمكن للفرد المنعزل، تطوير أخلاق ذات فائدة جماعية نظرا للمصالح الأنانية ونفس الشيء بالنسبة لتجمعات الأفراد، وعليه لن يبقى إلا المجتمع، لأن الغايات الأخلاقية حسب " دوركهايم " هي تلك التي يكون موضوعها المجتمع وبالتالي فإن الفعل في إطار الأخلاق هو فعل من أجل المصلحة الجماعية. فالمجتمع كما يقول " دوركهايم "، ليس بشيء غريب عن الأخلاق كما كنا نعتقد ولا يمكن أن تكون له إلا آثار ثانوية بل هو عكس ذلك، شرط ضروري لأنه ليس مجرد تواجد بسيط للأفراد مع بعضهم، يحمل كل واحد أخلاق خاصة به، فالإنسان ليس بكائن أخلاقي إلا لأنه يعيش داخل مجتمع ذلك أن الفرد الذي يحمل أخالق جماعته ينبغي أن يتضامن معها ويتغير بتغير هذا التضامن (Durkheim,1912 :78).[6]

ويشير " دوركهايم "في هذا الصدد الى أن المجتمعات الصناعية الحديثة، تتميز بنسبة كبيرة من التحضر وبمستوى تقني عال وتطور واضح في ميدان الاقتصاد والنقل والاتصال، هذه المظاهر الجديدة إضافة الى الكثافة المادية والاخلاقية تؤدي الى بروز تقسيم للعمل معقد وتفاوت اجتماعي واضح وتخصص وظيفي، مما يؤدي الى ظهور حقول للحياة الاجتماعية متباينة وأوساط اجتماعية مختلفة لا يمكن تنظيمها من خلال ضمير جمعي واحد. فالتنظيمات الكبرى والدولة الحديثة والإدارة، أصبحت كلها في حاجة للخضوع الى قواعد خاصة ومستقلة (Durkheim,1912 :83) .[7]

يتطلب تقسيم العمل في هذه الأوضاع الجديدة، قواعد قانونية، لتحديد طبيعة الوظائف والعلاقات التي تحكمها، واجراءات اصلاحية في حالة اختراقها، مما يؤدي الى شكل جديد من التضامن نتيجة العمل التعاوني وهو ما يعرفه " دوركهايم " بمفهوم التضامن العضوي (Solidarité organique) الذي لا يربط الفرد مباشرة بالمجتمع ككل بل بحقول الحياة المختلفة وبالأوساط التي يمارس فيها الأفراد أنشطتهم. وبسبب تنوع ظروف الحياة، لا يمكن تنشئة الفرد حسب " دوركهايم "من خلال ضمير جمعي واحد لإعادة إنتاج ذهنية مشتركة واحدة. فالتضامن العضوي يفرض بصفة مطلقة، تكوين شخصيات مستقلة عن بعضها، تساهم بكل حرية في سياقات اجتماعية مختلفة (Pangam,2007 :33)[8].

إن الأخلاق الفردانية في رأي " دوركهايم " لا يمكن أن تعمل بفعالية إلا إذا تم اخضاع الفرد الى عملية تربوية طويلة وصارمة تمكنه من العيش بطريقة مستقلة. فالمجتمع الصناعي المتباين بفعل تقسيم العمل المعقد، لا يمكنه تطوير تضامنا تعاونيا إلا اذا استطاعت التربية أن تنقل للجيل الجديد التحكم في الذات الضروري واحترام النظام المعقد لقواعد المجتمع الحديث خلال مشاركته في جماعات متعددة وتنبيهه حول المخاطر التي قد تترتب عن الحياة الفردية (Pangam,2007 :39)[9].

4- الأخلاق العقلانية

إن الأخلاق الفردانية حسب رأي " دوركهايم "، التي لا تقوم على أي سلطة ماعدا سلطة العقل، تحمل بدون شك عنصرا إضافيا، يتمثل في "التفكير العقلاني"(la réflexion) ، يميزها بصفة جذرية عن أخلاق تقوم على أساس المقدس، ويصف في هذا السياق، ثلاث عمليات تربوية تمكن الفرد من استيعاب القيم والقواعد والمعايير الأخلاقية:

أ- ايقاظ وتنشيط الاحساس بالواجب عن طريق روح الانضباط، لأن التحكم في الذات هو الشرط الأول لتكوين الشخصية،

ب- التطلع الى المثل العليا الاجتماعية نتيجة الانتماء الاجتماعي ذلك أن اندماج الفرد داخل الجماعات المختلفة هو الشرط المسبق للتضامن العضوي.

ج- تنمية القدرة على الفهم والتفكير من أجل الاستقلالية الضرورية للحياة الفردية.

4-1- الانضباط وتنمية الشخصية الانسانية : قد يبدو وفق رؤية " دوركهايم "، أن نضج الشخصية ونموها وتفتقها، أمور تتنافى مع الانضباط الأخلاقي. فالفرضية القائلة أن تطور الفردانية مرتبط بتطور التحرر من الضغوط الأخلاقية والقيود التنظيمية والاجتماعية، تجد نفيها عند" دوركهايم " الذي يقر بأن مثل هذا التصور خاطئا، ليس فقط لأنه يرى في الانضباط شرا ضروريا للحفاظ على النظام، لكن كذلك لأنه يتجاهل الدور الايجابي للانضباط، سواء على مستوى التعايش الاجتماعي أو التنمية الأخلاقية لشخصية الأفراد. فالتعاون الاجتماعي حسب ما يذهب اليه " دوركهايم "، يصبح مستحيلا إذا كان سلوك الفرد يتم بطريقة عشوائية أي لا يمكن توقعه بالأساس، فالميزة الأولى للانضباط هو أنه ينمي الميول للانتظام والتعود بشكل يجعل الفرد يقوم بنفس الأفعال في نفس المواقف(Durkheim,1903 :69) .10 ففي هذه الحالة تصبح وظيفة الأخلاق هي تحديد سلوك الفرد في شكل سلطة آمرة، تخضعه الى الرقابة الاجتماعية وتجنبه العشوائية الفردية وزيادة على الحفاظ على التماسك الاجتماعي، يقوم الانضباط بوظيفتين تساهمان في عملية التنشئة الاجتماعية: أولا تحقيق مستوى معين من الانتظام في سلوك الأفراد من جهة وثانيا تحديد غايات محددة وأفق محدودة، فعندما ينعدم هذا الانتظام، يصبح الفرد وفق " دوركهايم "، بدون وقاية يخضع لسيطرة مصالحه المتغيرة وسرعان ما يتحول الى عبد في خدمة رغباته وميوله المزاجية وتنقلب قوته الى ضعف. وعليه فان التحكم في الذات هو الشرط الأول لكل سلطة حقيقية ولكل حرية جديرة بهذا الاسم حيث أن الفعل في اطار الأخلاق يصبح تصرفا وفق مبادئ ثابتة، متعالية عن الدوافع والمغريات العرضية وفي كل مرة يميل الفرد الى تجاوز هذه الحدود، يتعرض لاختلال التوازن بين قدراته وامكانياته، بين أهدافه ووسائله مما يؤدي به الى ما يعرف بمفهوم الأنوميا(Durkheim, 1897 :32) .11

2-4- التمسك بالجماعة الاجتماعية: يعتبر " دوركهايم " أن روح الانضباط والتحكم في الذات يشكلان قاعدة أساسية لأي فعل أخلاقي وجزء مهما من التكوين والتربية، هذه الأخيرة التي لا تكتمل بدون التعلق بالجماعة الاجتماعية. فالإنسان حسب رأيه، كائن اجتماعي يحتاج الى مناخ أخلاقي داخل جماعة تماما مثل ما يحتاج للأكسجين ليتنفس. فإذا كان المجتمع في تصور "دوركهايم"، أعلى هيئة للسلطة الأخلاقية فإن عملية التنشئة الاجتماعية تضع الفرد دائما في تفاعل مع عدة جماعات اجتماعية. عندما يكون الفرد من مجتمع تقليدي بسيط، فإنه يستطيع الاندماج مباشرة في الجماعة العشائرية، أما إذا كان من مجتمع حديث معقد فقد يكون في هذه الحالة، عضوا داخل الأسرة، داخل المدرسة، داخل جماعة مهنية، داخل مجتمع محلي أو عالمي. هذه الأوساط الاجتماعية المختلفة، لها قواعد تختلف من حيث النطاق والعمومية ولأن القواعد تكون أكثر عمومية كلما كانت أقل شخصية (personnelles)، فإن الترتيب الهرمي لهذه الأوساط يجعل الأسرة في أدنى مستوى، لأنها تقوم بالتنشئة الاجتماعية الأولية حيث أنها تمنح الطفل الدفء والمشاعر الاخلاقية التي تسمح له بالتعلق بالجماعة الاجتماعية الأولى. غير أن الاسرة النووية الحديثة حسب رأيه، قد فقدت وظيفتها الكيفية والكمية والبعض من مهامها الاقتصادية والسياسية والقانونية لحقول اجتماعية أخرى بل أنها اصطدمت كذلك بمنافسة قوية على وظيفة التنشئة الاجتماعية التي كانت تحتكرها. فالتربية العمومية من خلال المدرسة تستهل التنشئة الاجتماعية الثانية التي تحضر الطفل الى العيش داخل مجتمع يسوده تقسيم اعمل معقد (Durkheim, 1897 :39) 12.

1-2-4- الأخلاق المهنية: إن الأخلاق المهنية كما يضيف " دوركهايم " كضرورة حتمية داخل المجتمعات الصناعية، تكتسي أهمية متنامية بصفتها وسيطا بين الأخلاق الأسرية والأخلاق المدنية، وبينما تكون التجمعات المهنية (les regroupements professionnels) موجودة داخل الدولة، الادارة والجيش، فإنها عكس ذلك مفقودة داخل المصانع والتجارة. وأمام حالة الآنومية التي قد تسود داخل الاقتصاد من جهة والمشاكل الاجتماعية من جهة أخرى، فإن " دوركهايم " يرى أنه من الضروري تشكيل جماعات مهنية كأعضاء تنظيمية مستقلة من أجل تسوية الخلافات بين العمال وأرباب العمل وفق مصالح الطرفين الخاصة (Durkheim, 1897 :45).[13] وإذا كانت الدولة والانسانية بصفة عامة، تمثلان بالنسبة للأخلاق، أعلى درجة من حيث العمومية، فإن" دوركهايم "يتساءل حول مكانة كل من القومية (le nationalisme) والكونية (le cosmopolitisme) ومن بينهما ينبغي أن تكون المثل الأعلى للأخلاق المدنية؟

إن ما يحسب على الكونية في اعتقاد "دوركهايم"، هو عدم وجود مجتمع دولي يستطيع ضمان هذه المثل العليا لأنه كما يشير، بالرغم من إمكانية وجود مجتمع أوروبي، فالدولة هي الآن الجماعة البشرية الأكثر تنظيما، مما يجعله يدافع عن الروح القومية الموجهة نحو الداخل والتي ينبغي أن تمتثل لها كل أمة أي تحقيق المثل الكونية على المستوى السياسي بشكل يجعل الأمة تتطلع الى أعلى درجة ممكنة من العدالة الاجتماعية والى أفضل تنظيم أخلاقي وأيضا الى أن تكون نموذجا مثاليا بالنسبة للدول الأخرى.

وعليه فإن الفرد وفق " دوركهايم " إذا استطاع التكامل داخل المجتمع من خلال عملية التنشئة الاجتماعية واندمج داخل الجماعات الاجتماعية المختلفة واستوعب الترتيب الهرمي للحقوق والواجبات الأخلاقية، يمكنه فقط أن يتقبل المثل اللاشخصية (les idéaux impersonnels) ويدافع عنها كما يمكنه أن يتقلد مسؤولية التضامن الناشئ عن التعاون(Durkheim, 1897 :50) 14.

3-4-استقلالية الارادة والفردانية الأخلاقية : قد يبدو لنا في اعتقاد "دوركهايم" أن التنشئة الاجتماعية والتربية التي نتلقاها من جهة واستيعاب الانضباط والترتيب الهرمي للمعايير من جهة أخرى، عمليتين اكراهيتين، يصعب التوفيق بينها وبين متطلبات استقلالية الإرادة وقد نتساءل في هذا السياق، كيف يمكن التوفيق بين الطابع الخارجي والمفروض للقواعد الأخلاقية مع متطلبات الاستقلالية الشخصية للضمير الأخلاقي الحديث أي كيف يمكن الجمع بين الحتمية الاخلاقية والارادة الحرة؟

ان الإجابة التي يقترحها "دوركهايم" تتمثل في كون العصر الحديث يتميز بتطور عدد من القيم الانسانية، تبنتها المجتمعات الغربية الحديثة مثل الديمقراطية، حرية التفكير والمعتقد، حرية التعبير ... الخ وتتلخص كل هذه القيم فيما يعبر عنه بمفهوم استقلالية الارادة التي ترتب عنها تكريس حرية الأفراد في انتقاد القواعد الأخلاقية المفروضة. وقد ساد آنذاك الاعتقاد وفق رأي "دوركهايم"، أن الضمير الشخصي ينبغي أن يتمتع بدرجة معينة من الاستقلالية الذاتية وذلك بالرغم من أنه خلال عملية نقل الأخلاق، يكون الفرد متلقيا سلبيا (Passif)، أكثر منه فاعلا، ولا يمكنه المساهمة في توجيه الاخلاق الجماعية السابقة عنه في الوجود، وذلك بقوله:" نحن نتلقى الفعل عن طواعية أكثر مما نقوم به " (Durkheim,1897 :76)[15].

فبينما يرى "كنت"(Kant) أن "من لا يشعر بالإكراه فيما تمليه عليه طرق الفعل والاحساس والتفكير الخاصة به، يكون أكثر تخلقا من ذلك الذي يشعر بالإكراه، لأن الكائن العاقل لا يمكنه إلا قبول القوانين الأخلاقية الخارجة عنه والقائمة على أساس العقل، نجد " دوركهايم " عكس ذلك، يجزم من جانبه، أنه لا يوجد كائن عاقل بكل ما تعنيه الكلمة، لأن الانسان حساس بطبعه وبالتالي يولي اهتماما بمصالحه الخاصة وهو ما يشكل الجزء الغير أخلاقي لدى الانسان لأنه موجه نحو ذاته.

4-4- الزاميته الأخلاق: إن القواعد الأخلاقية ، تعمل بصفتها إلزاما يتجاوز الارادة، لأنها لا تأخذ يعين الاعتبار لا الاحساس ولا الرغبات الشخصية الخاصة بل تأخذ بالحسبان ما هو عام (Beaudelot, 2007 :97).[16]غير أن الاستقلالية كما يتصورها " دوركهايم "، هي وليدة الارادة العاقلة والاكراه وليد الحساسية، أما الامتثال لنظام الأشياء لمجرد أننا نعتقد أنه كما ينبغي أن يكون، لا يعني وقوعنا تحت سيطرة الاكراه بل يعني أننا نريد هذا النظام بكل حرية ونتقبله بكل وعي ودراية. إن علم الأخلاق في قناعته، يمكنه أن يؤدي الى نفس التحرر الذي يقلل تدريجيا من نسبة الاكراه على الامتثال للقواعد الأخلاقية، هذه الأخيرة التي نخضع لها بكل سلبية والتي يتلقاها الطفل من الخارج عن طريق التربية، التي بدورها، تفرض نفسها عليه بفعل سلطتها (Beaudelot,2007 :108).[17] يمكن على حد قول "دوركهايم"، أن نبحث عن طبيعة الأخلاق وظروفها القريبة والبعيدة وأساسها المنطقي وبكلمة واحدة نستطيع أن نجعل منها موضوع علم بدون المساس بنفوذها، فالأخلاق حسب " دوركهايم " لن تتوقف عن الأمر بالطاعة بحجة أن الضمير الفردي قد يعرف سبب وجودها (la raison d'être) وبكل بساطة، تصبح الطاعة بهذا المعنى، إرادية مصدرها قناعة الفرد (Durkheim,1895 :35).[18]

المحور الثالث: التربية الخلقية وفق "دوركهايم"

من بين مؤسسي علم الاجتماع باختلاف جنسياتهم، يعتبر "دوركهايم" الأكثر اهتماما بقضايا التربية، فتصوره الخاص بالمجتمع وتطوره، يقوده الى تفضيل تحليل ظاهرة التنشئة الاجتماعية باعتبارها عملية تضيف للكائن الحيوان، كائنا اجتماعيا. فالتربية، كما يشير في مؤلفه "التربية وعلم الاجتماع"، تهدف الى ترسيخ، لدى الأطفال، عددا معينا من الحالات البدنية والفكرية والخلقية، التي يقتضيها منه المجتمع السياسي بصفة عامة والمجتمع الذي سوف يعيش داخله بصفة خاصة. فمن خصائص المجتمعات العصرية كما يضيف، أنها تمنح جزء من هذه الوظيفة لمؤسسة خاصة وهي المدرسة وعليه فان النسق الدراسي (système scolaire) في تصور "دوركهايم" هو نسق اجتماعي فرعي وظيفته الأساسية تكمن بصفة خاصة في تحقيق عملية التنشئة الاجتماعية الممنهجة (Durkheim,1922 :21) 19

ولأن داخل المجتمعات الصناعية كما يشير، يكون تقسيم العمل معقدا،تصبح الأسرة عاجزة بمفردها، على القيام بهذه الوظيفة وعليه فأنه من خلال الشكل الدراسي(la forme scolaire) تقوم المدرسة بهيكلة المعارف والقيم والمعايير الاجتماعية مما يجعل دورها الاجتماعي أكبر وأشمل من مجرد التعليم، فالنسق الدراسي بهذا المعنى، توكل له وظيفة مزدوجة:

أ- ضمان نقل المعارف، تواصل القيم الاجتماعية، تثمين الحياة الاجتماعية ، إشعاع وسلطة المعلم، الاهتمام بالحياة الجماعية داخل القسم لتنمية روح الانتماء والتمسك بالجماعة.

ب- كون النسق الدراسي شعاع قيم العصرنة (اللائكية والوضعية)، تصبح من مهامه مسايرة التغير. فالتصورات البيداغوجية حسب "دوركهايم" تتطور وتتطور معها المدرسة من أجل الاستجابة لحاجات ومتطلبات المجتمع الجديدة لكنها (المدرسة) تتمتع بدرجة من الاستقلالية ذلك أن المعارف الدراسية يمكن أن ينبثق عنها فئات جديدة من التفكير. ولذا فان "دوركهايم" يعتبر المدرسة أهم وسائل التقدم الاجتماعي والتطور نحو مجتمع أكثر عقلانية20 (Durkheim, 1922 :26). [21]

1- مفهوم التربية كم يحدده "دوركهايم"

إن كلمة التربية كما يرى " دوركهايم" غالبا ما تستعمل بمعنى واسع جدا للإشارة الى مجموعة من الآثار التي يمكن أن تمارسها الطبيعة أو الأشخاص الآخرون، سواء على ذكائنا أو على إرادتنا. فالتربية كما يعرفها "دوركهايم" على خطوات "ميل"(Stuart Mill) ، تتضمن كل ما نفعله بأنفسنا وكل ما يفعله الآخرون من أجلنا لغاية التقرب من كمال طبيعتنا. تشمل التربية في معناها الواسع كما يؤكد "دوركهايم"، كل التأثيرات الغير مباشرة على شخصية وقدرات الفرد من قبل أشياء هدفها غير ذلك مثل القوانين، أشكال الحكم، الفنون الصناعية وكذلك الظواهر الفيزيقية، المستقلة عن إرادة الفرد مثل المناخ، الأرض والمكانة الاجتماعية ". وإذا كان "جيمس ميل"(James Mill) يقر بأن موضوع التربية يتمثل في جعل الفرد وسيلة لسعادته ولسعادة الآخرين فان السعادة في نظر "دوركهايم"، شيء ذاتي ونسبي في جوهره وأن تقديره يختلف من فرد الى آخر (Durkheim,1905 :17) . 22

و اذا كان التربية حسب "كنت"(Kant) ، تهدف الى تنمية الكمال الذي يمكن أن يصل إليه الفرد، فان الكمال حسب رأي "دوركهايم" هو التنمية المتناغمة لكل القدرات الإنسانية التي حتى وان كانت ضرورية ومحبذة، إلا انه من غير الممكن تحقيقها كلها .كما يذهب أيضا الى أنه لا يمكننا ولا يجب علينا أن نطمح كلنا لنفس طرق المعيشة لأنه لكل فرد وظائف، يقوم بها حسب قدراته ومؤهلاته وينبغي أن نكون منسجمين مع تلك التي توكل لنا. وكما يوجد أشخاص من أجل التفكير، يوجد كذلك أشخاص من أجل الشعور والفعل وبسبب هذا التمايز لا يمكن للتناغم أن يكون هدف التربية وعليه فان "دوركهايم" يرى أن هذه الأنواع من التعاريف تحتوي معاني مختلفة لا يمكننا تجميعها تحت مصطلح واحد بدون أن نتعرض الى نوع من الالتباس. إن فعل الأشياء على الأشخاص يختلف، من حيث الطرق والنتائج، عن الفعل الممارس من قبل الأشخاص أنفسهم، كما أن فعل الكبار على الكبار من نفس العصر، يختلف عن الفعل الذي يمارسه الكبار على الصغار والفعل الأخير هو بالذات الفعل الذي يهم "دوركهايم" وهو الذي يخصص له مصطلح "التربية" "(Cherkaoui,1976) [23].

فكل معاني التربية السابقة، عيبها كما يذهب إليه "دوركهايم" أنها تنطلق من مسلمة تؤمن بوجود تربية مثالية تصلح لكل الناس بدون تمييز وهذه التربية العالمية والوحيدة هي التي يجتهد المنظرون من أجل تعريفها غير أننا كما يضيف "دوركهايم" عندما ننظر الى التاريخ لا نجد ما يؤكد مثل هذه الفرضية، فالتربية عرفت تغيرا حسب الفترات الزمنية وحسب الدول، فالتربية داخل المدن اليونانية واللاتينية، كانت تدرب الفرد على الخضوع التام للجماعة وعلى أن يكون شيء المجتمع واليوم تجتهد التربية لتجعل منه شخصية مستقلة.

وقد كانت " أثينة " (Athènes) كما يقول "دوركهايم" تعمل على تكوين عقول حساسة، فطنة، نيرة، مولعة بالقياس والانسجام، قادرة على تذوق الجمال والبهجة الناجمة عن مجرد التخمين، في حين عمل أهل "روما" (Rome) على تحضير الأطفال ليكونوا رجالا ناشطين يعشقون المجد العسكري، غير مبالين بكل ما يتعلق بالآداب والفنون. وفي العصور الوسطى كانت التربية مسيحية وفي عصر النهضة اكتست طابعا علمانيا وأكثر أدبية، أما اليوم أصبح العلم يتطلع الى المكانة التي كان يشغلها الفن في السابق (Durkheim,1922 :27). [24] وهذا دليل بالنسبة ل" دوركهايم" على وجود ضروريات حتمية لا يمكن تجاهلها، فالكلام عن التربية المثالية بغض النظر عن كل الظروف الزمنية والمكانية، يعني وفق رأيه، أننا نعتقد ضمنيا بأن النظام التربوي ليس واقعا بحد ذاته ولا نرى فيه تلك المجموعة من الممارسات والمؤسسات التي تشكلت

تدريجيا عبر الزمن، متضامنة مع كل المؤسسات الاجتماعية الأخرى ،ومعبرة عنها وبالتالي لا يمكن أن نغيرها كما نريد، شأنها في ذلك شأن بنية المجتمع، ويضيف أن كل مجتمع يتميز في لحظة معينة من تطوره، بنظام تربوي يفرض على الأفراد بقوة لا يمكن مقاومتها وعليه يصبح من غير المنطقي الاعتقاد أننا نستطيع تربية أطفالنا كما نريد، لأن هناك عادات يجب علينا الامتثال لها ذلك أن الخروج عنها يعرض أبنائنا، عند البلوغ، الى مشكلة التعايش مع معاصريهم بسبب عدم انسجامهم معهم حيث أنه يوجد حسب رأيه، نمط منظم للتربية (un type régulateur d'éducation) في كل لحظة من الزمن لا يمكننا أن ننحرف عنه بدون أن نصطدم بمقاومات. فالعادات والأفكار التي تحدد هذا النمط ليست من صنعنا كأفراد بل نتيجة الحياة الجماعية، وهي تعبير عن متطلباتها الضرورية التي هي في معظمها انجاز قامت به الأجيال السابقة، وقد ساهم ماضي البشرية بأكمله، في انجاز هذا الزخم من الحكم التي توجه التربية اليوم(Durkheim,1922 :36) .25

كما يؤكد "دوركهايم" في ذات السياق أننا عندما نقوم بدراسة الطرق التي من خلالها، تشكلت وتطورت الأنظمة التربوية، دراسة تاريخية، نلاحظ أنها مرتبطة بالدين، بالتنظيم السياسي، بدرجة تطور العلوم، بحالة الاقتصاد والصناعة.. .الخ ، وعندما نفصلها (الأنظمة التربوية) عن هذه الأسباب التاريخية تصبح غير قابلة للفهم، فكيف إذن، كما يتساءل "دوركهايم" يمكن للفرد، بمجرد تفكيره الخاص، أن يحاول إعادة بناء ما لم ينجزه التفكير الفردي؟ فهو ليس أمام صفيحة مجردة يستطيع بناء عليها ما يشاء، بل هو أمام حقائق موجودة لا يمكنه خلقها ولا تدميرها ولا تغييرها كما يشاء (Durkheim,1922 :36) . 26

2- تنوع التربية: إن الحديث عن التربية حسب "دوركهايم" يقتضي وجود جيلين، جيل الكبار وجيل الصغار وفعل يتم ممارسته من قبل الجيل الأول على الجيل الثاني، غير أنه يقر بوجود أنواع مختلفة من التربية باختلاف الأوساط داخل المجتمع: فتربية "البراهمان" ليست تربية "السودرة" وتربية الأرستقراطيين في القرون الوسطى ليست تربية الفقراء واليوم يمكننا ملاحظة اختلاف التربية باختلاف الطبقات الاجتماعية (التربية داخل المدن ليست نفسها في القرى وتربية الأثرياء ليست تربية العمال المهنيين.

ان تنوع التربية التي يتلقاها الأطفال، يكون دائما مرتبطا بالحظ الذي يجعلهم يولدون هنا أو هناك. وبالرغم من التباين الواضح إلا أن هذه الأنواع المتعددة من التربية تقوم كلها على قاعدة واحدة تشترك فيها كل الفئات الاجتماعية ذلك أنه لا يوجد شعب خال من عدد معين من الأفكار والمشاعر والممارسات، ينبغي على التربية غرسها لدى كل الأطفال بغض النظر عن أصولهم الاجتماعية، فالدين على سبيل المثال والمبادئ الدينية وبعض المعتقدات المقدسة، توحد كل فئات المجتمع وتخضعها لنفس القيم والمعايير (Durkheim,1922 :42) .[27]

لقد تشكلت عبر التاريخ، مجموعة من الأفكار حول الطبيعة البشرية، حول أهمية قدراتنا المختلفة، حول الحقوق والواجبات، حول المجتمع، حول الفرد، حول التقدم، حول العلم وحول الفن...الخ، والتي هي أساس روحنا الوطنية، فكل تربية، سواء كانت لدى الغني أو لدى الفقير أو تلك التي تهيئ للمسارات الحرة أو التي تحضر للوظائف الصناعية، موضوعها هو محاولة تثبيت هذه الأفكار داخل الضمائر ونتيجة هذا الواقع هي في قناعة "دوركهايم" وتصوره:

- أن كل مجتمع يتصور الرجل المثالي بالنسبة له سواء من الجانب الفكري أو البدني أو الخلقي،
- أن هذا المثل الأعلى هو نفسه بالنسبة لكل المواطنين،
- أنه انطلاقا من نقطة معينة، يختلف هذا المثل باختلاف الأوساط الخاصة التي لا يكاد يخلو منها مجتمع.

هذا المثل الأعلى الواحد والمتنوع في ذات الوقت، هو قطب التربية وعليه فان وظيفة التربية الأساسية هي:

- تنمية لدى الأطفال، عددا معينا من الحالات الفيزيقية والعقلية التي يصر المجتمع في مجمله وبصفة عامة، على أن يتمتع بها كل أعضائه،

تنمية لدى الأطفال بعض الحالات الفيزيقية والعقلية التي ترى الجماعة الاجتماعية الخاصة (طبقة، أسرة، مهنة) ضرورة تنميتها لدى الأفراد الذين ينتمون إليها.

ولذا فان المجتمع كله والوسط الاجتماعي الخاص هما اللذان يحددان المثل العليا التي تسعى التربة الى تحقيقها. فالمجتمع كما يقر "دوركهايم" لا يستطيع البقاء إلا إذا وجد بين أعضائه درجة كافية من التجانس والتربية هي التي تعمل على إدامة وتعزيز هذا الانسجام وذلك بمحاولة تثبيت في روح الطفل، بصفة مسبقة وممنهجة، أوجه التشابه الأساسية التي تقتضيها الحياة الجماعية، كما أنه يؤكد من جهة أخرى، أنه من غير درجة من التنوع يكون العمل التعاوني (la coopération) مستحيلا لأن التربية هي التي تضمن ثبات هذا التنوع الضروري من خلال قيامها بتنويع نفسها وتخصصها (Filloux,1978 :156).[28]

2- غاية التربية : ان التربية كما يجزم "دوركهايم" هي التنشئة الاجتماعية الممنهجة الممارسة على جيل الصغار، فداخل كل فرد، حسب نظره، يوجد كائنان: كائن يتشكل من كل الحالات العقلية التي لا تتعلق إلا بأنفسنا وبأحداث حياتنا الخاصة وذلك ما يسميه الكائن الفردي (l'être individuel) ،وكائن ثاني يتكون من نسق من الأفكار والمشاعر والعادات التي تعبر ليس على شخصيتنا بل على شخصية الجماعة أو الجماعات الاجتماعية المختلفة التي ننتمي إليها مثل المعتقدات الدينية، العقائد والممارسات الأخلاقية، العادات الوطنية أو المهنية، الآراء الجماعية بكل أنواعها والتي في رأيه، تشكل الكائن الاجتماعي (l'être social) وتشكيل هذا الكائن الاجتماعي لدى كل منا هو غاية التربية. فالمجتمع كما يؤكد، يجد نفسه مع كل جيل، أمام صفحة تقريبا بيضاء، ينبغي أن يبني عليها من جديد وبأسرع الطرق ولذا فان المجتمع عليه أن يضيف للكائن الأناني والغير اجتماعي الناشئ، كائنا آخرا قادرا على أن يعيش حياة خلقية واجتماعية لأن التربية كما يتصورها "دوركهايم" ليست تنمية جسم الفرد في الاتجاه الذي رسمته الطبيعة أو إبراز القوى الكامنة داخله، بل هي خلق كائن اجتماعي جديد (Durkheim,1922 :48).[29]

هذه الفضيلة الخلاقة على حد قول "دوركهايم" هي امتياز خاص بالتربية البشرية التي تختلف عن تلك التي تتلقاها الحيوانات والتي هي مجرد تدريب تدريجي من قبل أبويهم، قد تؤدي لديهم الى تنمية بعض الغرائز النائمة لكن لا تهيؤهم لحياة جديدة كما أنها قد تسهل تشغيل الوظائف الطبيعية، لكن لا تخلق شيئا غير ذلك. فصغير الطيور يتعلم من أمه الطيران لكن لا يتعلم شيئا ما لم يكتشفه بخبراته الخاصة لأن الحيوانات سواء كانت تعيش خارج الحالة الاجتماعية أو داخل تشكيلة اجتماعية بسيطة، فإنها تشتغل بفضل ميكانيزمات غريزية جاهزة يحملها كل فرد في جسده مع الولادة.

فالتربية بهذا المعنى، لا تضيف شيئا للطبيعة لان هذه كافية لحياة الجماعة ولحياة الفرد بيمنا عكس ذلك فان المهارات والقدرات المتنوعة التي تقتضيها الحياة الاجتماعية البشرية، معقدة جدا، لا يمكنها أن تحمل داخل أنسجتنا لتتجسد على شكل استعدادات عضوية وبالتالي فمن غير الممكن أن تنقل من جيل الى جيل من خلال الوراثة، فالتربية وحدها هي التي تضمن هذا النقل (la transmission) . ان التربية كما يجزم "دوركهايم" تستجيب قبل كل شيء لضروريات اجتماعية، فلو لم يعرف الإنسان حاجات غير تلك البسيطة التي تأخذ جذورها داخل تكوينه الفردي لما بحث وراء العلم خاصة وإن اكتسابه لن يتم إلا بعد جهود شاقة. فالإنسان لم يتعطش للمعرفة إلا بعدما أيقض المجتمع ذلك لديه والمجتمع بدوره لم يفعل ذلك إلا بعدما أصبح لديه الشعور بالحاجة الى العلم (Durkheim,1922 :59) . 30

وهذا ما حدث عندما أصبحت الحياة الاجتماعية بكل أشكالها، شديدة التعقيد، بحيث لا يمكنها أن تجري بدون التفكير العاقل أي التفكير المستنير بالعلم وهو الأمر الذي أدى الى ضرورة الثقافة العلمية التي أصبح المجتمع ينتظرها من أعضائه، ويفرضها بصفتها أحد الواجبات الأساسية. عكس ذلك، عندما كان التنظيم الاجتماعي بسيطا جدا، غير متنوع، كانت التقاليد كافية مثل الغريزة بالنسبة للحيوان، وكان والفكر والتفكير الحر بدون جدوى بل خطير لأنه كان يمثل تهديدا للتقاليد والعادات. ونفس الشيء في اعتقاد "دوركهايم" بالنسبة للتربية البدنية التي أخذت معان مختلفة حيث أنها في "اسبرطة " (Sparte)كانت تهدف الى تقوية العضلات لمقاومة الشقاء وفي " أثينة "(Athènes) كانت غايتها بناء أجسام

جميلة وعقول مفكرة وعليه فان الفرد لا يبحث عن صفات معينة إلا إذا طلبها منه المجتمع ولا يبحث عنها إلا كما يصفها المجتمع (Durkheim,1922 :61) .[31]

ان المجتمع كما يقر "دوركهايم" بصفة قاطعة، هو الذي يخرجنا من ذاتيتنا ويجبرنا على الأخذ بالحسبان، مصالح غير مصالحنا وهو الذي يعلمنا السيطرة على عواطفنا وغرائزنا ويعلمنا أن نحرم أنفسنا وأن نضحي ونجعل أهدافنا الشخصية بعد أهداف أعلى منها وحتى نسق التصورات الذي يحافظ لدينا على فكرة القواعد والتزامنا بها والانضباط الداخلي والخارجي والشعور بهما، المجتمع هو الذي أسسه(النسق) في ضمائرنا وهذا ما جعلنا نكتسب هذه القوة التي تمكننا من مقاومة أنفسنا. ومن هنا يستنتج "دوركهايم" كيف يكون الإنسان لو ننزع عنه كل ما منحه المجتمع؟ فيجب قائلا أن الانسان سيسقط لا محالة الى مرتبة الحيوان، هذا الأخير الذي لم يبق بعده شيئا مما تعلمه في حياته الفردية، في حين أن نتائج الخبرة البشرية تبقى تقريبا كلها محفوظة بكل تفاصيلها بفضل التقاليد الشفهية والكتب والأدوات المتنوعة التي تنتقل من جيل الى جيل. فحكمة الإنسان تتراكم بدون حدود وهذا التراكم الغير متناهي هو الذي يجعل الإنسان لا يتعالى عن الحيوان فحسب بل يتعالى على نفسه ومرة أخرى هذا التراكم لم يكن ممكنا إلا داخل المجتمع ومن خلاله (Durkheim,1922 :68).[32]

4- الأسس الاجتماعية للتربية : ان التربية كما يذهب اليه "دوركهايم"، تقوم قبل كل شيء بوظيفة اجتماعية وإذا كان موضوعها هو تكييف الطفل مع الوسط الاجتماعي الذي سوف يعيش فيه، فإنه من المستحيل الا يهتم المجتمع بهذه العملية. فالسؤال الذي يطرحه "دوركهايم في هذا الصدد هو: كيف يمكن للمجتمع أن يكون غائبا إذا كان يمثل نقطة المرجع الذي يوجه فعل التربية؟ ،فالمجتمع كما يؤكد هو وحده الكفيل بتحديد الأفكار والمشاعر التي ينبغي على المربي ترسيخها لدى الأطفال حتى يصبحوا منسجمين مع الوسط الذي سوف يعيشون فيه. فالمجتمع لو لم يكن دائما حاضرا وحرصا على أن يكون الفعل البيداغوجي في اتجاه اجتماعي، فسوف يكون هذا الأخير بالضرورة في خدمة المعتقدات الخاصة مما يؤدي بروح الأمة الى الانقسام لتتحول الى عدد غير منسجم من الأرواح الصغيرة المتجزئة والمتناقضة فيما بينها، وهذا يتنافى تماما مع هدف التربية التي من شأنها ضمان درجة كافية من تجانس الأفكار والمشاعر التي بدونها لا يمكن للمجتمع أن يكون و أن يبقى (Durkheim,1925 :28). 33

فما دامت وظيفة التربية اجتماعية بالأساس، فالدولة كما يتصور "دوركهايم" لا يمكنها إلا أن تهتم بها وأكثر من ذلك فان كل ما يتعلق بالتربية ينبغي أن يكون خاضعا لفعل الدولة، لكن لا يعني ذلك أنها تحتكر بالضرورة التعليم لأن التحصيل الدراسي في رأيه، يكون أفضل عندما يترك هامشا للمبادرات الفردية ذلك أن الفرد يكون أكثر من الدولة، استعدادا للتجديد. فخدمة للصالح العام، ينبغي أن تسمح الدولة بفتح مدارس أخرى زيادة عن تلك التي تحت مسؤوليتها المباشرة لكن بدون أن تبقى غريبة عما يجري داخلها بل كما يضيف، يجب أن تكون التربية التي يتلقاها الأطفال دائما تحت رقابة الدولة لأنه ليس من المقبول إطلاقا أن يمارس وظيفة التعليم، شخص لا يقدم ضمانات خاصة تكون فيها الدولة الحكم الوحيد بحيث لا تسمح بوجود مدرسة تطالب بكل حرية، بحق تقديم تربية لا اجتماعية (antisociale) . فالمدرسة، بالمعنى الذي يريده "دوركهايم"، ينبغي أن تكون بعيدة عن التحيز ويكون المعلم مقصرا في واجباته عندما يستعمل السلطة التي بيده ليفرض على التلميذ معتقداته الخاصة. فبالرغم من بعض الانشقاقات إلا أن هناك عدد من المبادئ المشتركة التي لا ينكرها إلا القليل وهي احترام العقل، والعلم والأفكار والمشاعر التي هي أساس الأخلاق الديمقراطية ودور الدولة هو العمل على أن يتم تعليم هذه المبادئ الجوهرية داخل المدارس(Durkheim,1925 :34) [34]

5- المدرسة والاخلاق : من المسلمات التي يؤمن بها "دوركهايم" أن الطفل يكون طبيعيا في حالة تلقي (passivité) مثله مثل ذلك الذي يكون تحت تأثير منوم (hypnotisé) حيث أن ضميره لا يحتوي إلا على عدد صغير من التصورات القادرة

على مقاومة ما يقترح عليه، و لأن إرادته لا تزال بدائية فهو قابل للتأثر والاقتناع وبالتالي الى التقليد خاصة وأن المعلم كما يقر، متعال بطبيعته عن التلميذ وأكثر خبرة وثقافة منه، مما يمنح لفعله القوة الفعالة والفاعلة الضرورية.

ويضيف في هذا السياق، في اتجاه المعلمين والأولياء، أن لا شيء يجري أمام الطفل بدون أن يترك لديه آثارا عميقة وأن منعطف عقله وشخصيته مرتبط بآلاف الأفعال الصغيرة في كل لحظة وعليه فإن عليهم مراعاة تصرفاتهم وكلامهم، باستمرار، فالتربية لن تصل الى الأهداف المرجوة إذا كانت تعمل بصفة متقطعة ولذا ينبغي الاعتماد على الصبر والمثابرة وتفادي البحث عن النجاح الفوري والظاهر ومواصلة العمل في اتجاه محدد، بدون التأثر بالحوادث الخارجية والظروف العرضية وتلك هي الوسائل الضرورية التي من شأنها التأثير العميق على النفوس(Durkheim,1925 :45) . 35

فالشعور بالواجب على سبيل المثال كما يشير "دوركهايم" بالنسبة للطفل مثل ما هو بالنسبة للبالغ، يكون الدافع الأساسي من أجل بذل الجهود، فحب الذات نفسه يقتضي ذلك لأن التأثر بالعقاب أو المكافأة يتطلب أن يكون الفرد واعيا بكرامته وبالتالي بواجباته. لكن الطفل لا يمكنه معرفة الوجبات إلا عن طريق معلميه وأوليائه والطريقة التي يستعملونها من أجل أن يستوعبها من خلال تعبيرهم وتصرفاتهم وعليه ينبغي وفقه، أن يكون المعلمون والأولياء بمثابة الواجب المجسد والمشخص (le devoir incarné et personnifié) .

هذا يعني أن السلطة الأخلاقية هي الصفة السيدة بالنسبة للمعلم لأن ما يجعل الواجب واجبا هو السلطة التي يتمتع بها حيث أن ما يميزه هو لهجة الأمر التي يتوجه بها الى الضمائر والاحترام الذي يفرضه عليهم ويجعلهم يسلمون بأقواله. إن السلطة التي يقصدها "دوركهايم" ليست العنف والإكراه بل تتمثل في التعالي الأخلاقي وتقتضي شرطين لدى المعلم: ينبغي أولا أن تكون لديه إرادة قوية لان السلطة ينجر عنها الثقة والطفل لا يثق بمن يراه يتردد ويتماطل ويتراجع عن قراراته. لكن هذا الشرط ليس الأساسي بالنسبة ل "دوركهايم" فما يراه مهما قبل كل شيء، هو أن يشعر المعلم حقيقة بالسلطة داخله ذلك أنها قوة لا يمكنه إظهارها إلا إذا كان يمتلكها بصفة فعلية. أما عن مصدر هذه القوة سواء كان من السلطة المادية التي يتمتع بها أو من حقه في العقاب والمكافأة يقول "دوركهايم" أن الخوف من العقاب، يختلف عن احترام السلطة وليس له قيمة معنوية إلا إذا تم الاعتراف بعدالة العقوبة من قبل الذي يتلقاها. وهذا يعني أن السلطة التي تعاقب، معترف بشرعيتها، فالمعلم بهذا المعنى، يكتسب سلطته ليس من الخارج بل من داخل ذاته ولا يمكنه امتلاكها إلا من خلال إيمان ينبع من أعماقه كما أنه لا ينبغي كذلك أن يكون هذا الإيمان بنفسه ولا بالصفات العليا لذكائه، بل الإيمان بمهمته وبعظمتها فقط، ذلك أن المعلم هو أحد أعضاء الشخص المعنوي الذي يتجاوزه و هو المجتمع (Durkheim,1925 :51) . [36]

1-4 – الاخلاق من خلال الفعل البيداغوجي : إن ذكاء الأخلاق (l'intelligence de la morale) كما يشير " دوركهايم " يؤدي الى أن يكون لدى الفرد، الوعي التام بالأسباب التي تتحكم في تصرفاته. فالطفل يمكنه أن يستفسر حول قواعد الاخلاق في المدرسة والاسباب التي تؤسسها، فبالرغم من أن علم الاخلاق لا يزال فتيا والى حين نضجه، يمكن حسب قوله، تنمية استقلالية الارادة خاصة عن طريق العلوم بصفة عامة والتاريخ من خلال التعليم ونقل المعارف. فتعليم العلوم يوضح للطفل التلميذ، واقع العالم الفيزيقي والطبيعي ويكسبه العناصر العلمية القاعدية (la propédeutique) التي تنمي لديه الاستعداد لفهم الواقع الاجتماعي، أما استيعاب تعقيد هذا الواقع، فذلك من شأن التاريخ الذي يعمل على شرح ماهية المجتمع وعلاقته بالفرد كما أن تاريخ أمته يعرفه بواقعه الخاص ويجعله يشعر بانتمائه لها وبوجودها في ذاته (Berger,1971 :67) [37]. ان التربية الأخلاقية العقلانية كما يتصورها "دوركهايم "هي بالأساس تربية وطنية تهدف الى تنمية الشعور بالمساهمة في الوطن ومن خلاله في تاريخ الانسانية. فالأسرة كجماعة ينتمي اليها الفرد، تكون أدنى مرتبة من الوطن والإنسانية الذين يحتلان أعلى مرتبة من حيث القيم الأخلاقية بفعل العمومية الواسعة التي يتمتعان بها والبعيدة عن غايات الفعل الشخصية .فانتقال مركز الجاذبية للحياة الأخلاقية حسب قوله، نحو المدرسة جعل منها عضوا ثانويا للدولة، وبما أن كل بيئة أخلاقية تعمل على ضمان وجودها، فإن الأسرة بالتفاتها نحو نفسها، لا يمكنها لوحدها تحريك الاحساس بالوطن ومنه جاء الاهتمام الكبير بدور المدرسة في تكوين أخلاق الأمة (Darmon, 2006 :45) [38]. ولما كانت وظيفة

المدرسة بين أيدي المعلمين، فإن التفكير البيداغوجي أصبح ضروريا لنجاح مهمتهم التي تقتضي المرونة أمام التغيرات التي يشهدها المجتمع، وحتى يمكن نقل الشعور بالانتماء الى الوطن لدى الطفل، ينبغي على المعلمين أن يرسموا في عقول الأطفال نفس المثل العليا وأن يفكروا في الوحدة التي يريدون تحقيقها داخل ضمائرهم خاصة في المرحلة الثانوية القائمة على تنوع التعليم (Durkheim,1922 :25)39.

ترجع أفكار " دوركهايم " البيداغوجية هذه، الى أن موجة الاصلاح التي بدأت منذ القرن الثامن عشر في أوروبا، أحجبت نظرة المجتمع الى صورة الانسان المثالي، ففي مثل هذه الظروف، أصبح من الضروري أن يفكر المعلمون بصفة جماعية وأن يتم مراعاة التيارات الفكرية السائدة والحاجات الاجتماعية التي أدت الى نشأة التعليم العمومي وكذلك تقييم تلك الحاجات المستجدة من أجل تحديد هذا المثل الاعلى والعمل على تحقيقه بمشاركة كل المعنيين بالتنشئة الاجتماعية من أجل الوطن، ذلك أنه بدون توجيه محدد مسبقا، يستحيل انتظام وتكامل الأجيال الجديدة داخل المجتمع (Filloux,1978 :86)[40].

خاتمة

مما سبق ذكره يمكن أن نستنتج أن " دوركهايم "من خلال دراسته للأخلاق في المجتمعات الغربية الحديثة بعد انتقالها من التضامن الآلي الذي يميز المجتمعات التقليدية، الى التضامن العضوي المميز للمجتمعات الصناعية، استطاع أن يطور ثلاثة مفاهيم يقوم على أساسها التخلق، تتمثل في روح الانضباط، الانتماء الى الجماعات الاجتماعية واستقلالية الارادة. هذه العناصر التحليلية لا يمكن من دونها فهم الطريقة التي يقترحها "دوركهايم " لمواجهة أزمة الاخلاق التي عصفت بالمجتمع الفرنسي نتيجة التيارات الفكرية الفردانية المتنامية آنذاك. وعليه فإنه خصص أعماله الى البحث حول القوى الأخلاقية التي يمكن أن تقوم على أساسها الحياة الاجتماعية.

تجدر الإشارة الى اقتراحات "دوركهايم في هذا الاتجاه، حيث يركز على ضرورة وضع بين أيدي المعلمين الوسائل اللازمة التي من شأنها السماح لهم بنقل النصوص والأحكام العامة ، التي تمكن الأفراد من الرفع من درجة الشعور الجمعي من أجل التعايش والتفاعل الاجتماعي. فالأخلاق في نظر " دوركهايم " هي عبارة عن مجموعة من القواعد المعلومة والخاصة تعمل على تحديد السلوك بصفة مطلقة وبالتالي فان وظيفتها تتمثل في تنظيم تصرفات الأفراد حتى لا تستسلم للاعتباطية الفردية والعشوائية، فهي وظيفة كما يقول، بدونها لا يمكن لأي مجتمع أن يعيش سعيدا ذلك أن انعدام القواعد الأخلاقية يؤدي الى زعزعة استقرار المجتمع واختلال توازنه.

قائمة المراجع

1- Beaudelot (Ch) (2007), **Durkheim et le suicide**, Puf, Paris.
2- Berger (P)(1971),**La religion dans la conscience moderne**, Centurion , Paris.
3- Cherkaoui (E)(1976), **Socialisation et conflit : Les systèmes éducatifs et leur histoire selon Durkheim**, Revue française de sociologie, Vol. XVII, n°2, ..
4- Darmon (P), **La socialisation**, Armand Colin, Paris, 2006.
5- Dubar(c)(1991),**La socialisation :Construction des identités sociales et professionnelles**. Colin, Paris.
5- Durkheim (E) (2014), **Sociologie et philosophie (1924),** Puf, Paris,
6- Durkheim(E) (1974), **L'éducation morale (1903),** Puf, Paris,.
7- Durkheim (E) (1991), **De la division du travail social (1893),** Puf, Paris.
8-Durkheim (E) (2009) , **De la division du travail social (1893),** Puf, Paris**.**
9- Durkheim (E) (2001), **Le suicide (1897)**, Puf, Paris.
10- Durkheim (E) (2007), **Les règles de la méthode sociologique**, Puf/quadrige, Paris.
11- Durkheim (E) (1992), **Education et sociologie(1922)**, Felix Alcan, Paris.
12-Durkheim(E)(1990), **Les formes élémentaires de la vie religieuse(1912**), Puf, Paris.

13-Durkheim(E)(1990), **Leçons de sociologie(1898-1900)**, Puf, Paris.
14Durkheim (E)(1938), **L'évolution pédagogique en France (1905)**, Puf, Paris.
15- Filloux (J.C)1978) , **Une propédeutique pédagogique** : Revue française de pédagogie, Vol.44,
16-Filloux (J-C)1979, **Sur la pédagogie de Durkheim**, Revue française de pédagogie, Vol. 37,Paris.
17- Pangam (S)(2007), **Introduction, In E. Durkheim, De la division du travail social**, Puf, Paris.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب

براهيمي أم السعود ، (2020)، **المقاربة السوسيولوجية للأخلاق في المجتمعات الحديثة: تحليل "دوركهايم" نموذجا** ، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 12(04)/ 2020، الجزائر : جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ص.ص 229-242.